الفصل الأول

نموذج الرشد،
والمنظومة المعرفية الرشيدة

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾

(سورة الجن:١-٢)

obeikandl.com

obeikandl.com

نموذج الرشد،
والمنظومة المعرفية الرشيدة

بما أنني سأقرأ "**البراديم كولن**" ضمن **نموذج الرشد**، وهو نموذج طوَّرته ليبحث في مجال معرفيّ واحد، وهو: **العلاقة بين الفكر والفعل، وبين العلم والعمل**؛ كان لزاما عليَّ أن أعرِّف للقارئ هذا النموذج، حتى أضعه على الصورة.

من النموذج التفسيري إلى نموذج الرشد

"النموذج التفسيري" مصطلح من إبداع عبد الوهاب المسيري، ولقد استطاع من خلاله اختراق الثنائية الكلاسيكية: "الموضوعية والذاتية"، أو بالأحرى "إمَّا موضوعي وإمَّا ذاتي"؛ يقول المسيري ناقدا الفكر العربي المعاصر: "وفي تصوُّري، إنَّ إحدى مشاكل الفكر العربي أنه لا يزال فكرا مضمونيًّا، أي يتعامل مع المضامين المباشرة، ولا يصل إلى العلاقات المجرَّدة الكامنة، أو إلى **النماذج المعرفية**" (الموسوعة).

ولا ينبغي أن نفهم أنَّ المسيري يقف إلى صفِّ "البنيوية" في مرحلتها المتأخِّرة، والتي تجرِّد النص من أيِّ مضمون، وتحوِّله إلى بنية لغوية مجرَّدة، يلوكها القارئ كما يلوك العلك، ويعطي لها المدلول الذي يريد، حسب مزاجه، وهواه، ومستواه... غير أنَّ المسيري كذلك لا يدافع عن التحليل المضموني الكلاسيكي، الذي يُعنى بالمضمون المباشر، ضاربا

عرض الحائط كلَّ إطار من أيِّ نوع كان، وكلَّ سياق مهما بدا بريئا أو غير بريء، وكلَّ علاقة مهما كانت متينة أو هشَّة.

هنا يدخل **الواقع** معطًى أساسيا في عملية التحليل، حيث تلتصق المدرسة المضمونية **بالواقع** -اللفظي، أو التاريخي، أو حتى الآني- ولا تحاول تجاوزه، فتختزل المعنى في ملاحظات جزئية آنية ظرفية محضة، ولا تتجاوزها إلى الكلِّ، ولا إلى العلاقات الشمولية، ولا إلى الرؤى الكونية، إلا لماما وعرَضا...

وفي سياق التعامل مع النص النبوي الشريف، قدَّم المسيري مثالا توضيحيا بليغا، فقال: "ولنتخيل عالما إسلاميا يتعامل مع الأحاديث الشريفة من منظور المضمون وحسب، لا شكَّ أنه سيفشل في ربطها مع المفاهيم الكلية الإسلامية الأخرى"، ولنقل مثل ذلك عن تفسير القرآن الكريم، من منطلق المضمون، وهو الغالب -للأسف-.

ولا بدَّ من التنبُّه إلى أنَّ العلاقة بين الفكر والواقع، وبين النصِّ والواقع، وبين النموذج والواقع... ليست علاقة بسيطة اختزالية؛ لكنَّها متشابكة معقَّدة لا نهائية، لا تلغي منظور الإنسان ولا "ماقبلياتِه" ولا معتقاداته، وإنما تستحضرها وتعتبرها، ولا تخضع كلية لها.

ولسائل أن يسأل: وماذا عن العلاقة بين "النموذج التفسيري" و"الواقع"؟

إنَّ العلاقة بينهما علاقة حلزونية، تذكِّرنا بمدرسة "بحوث الفعل"، التي تجعل العلاقة بين البحث والفعل علاقة حلزونية، وصفتها: "أنَّنا ننحت النموذج الافتراضي عن طريق معايشتنا لواقع ما، وعن طريق تأمُّلنا فيه، وعن طريق قراءتنا وتمحيصنا. وبعد نحت النموذج نُعمل فيه الذهن والفكر لنولِّد علاقات افتراضية، تكثِّفه وتصقله. ثم نعود إلى الواقع فيُنيره

لنا. ولكنَّ الواقع، في كثير من الأحيان، يتحدَّى النموذج فيعدِّله ويزيد كثافته وصقلَه" باختصار، "فالحركة إذن: من الواقع إلى العقل، ومن العقل إلى الواقع".

وهذه الحركة في مجملها هو ما اصطلحنا عليه **بنموذج الرشد**.

نموذج الرشد

يقوم نموذج الرشد على فكرة "النضج"، التي تفترض أنَّ لكلِّ شيء ظروفه الفطرية والطبيعية لكي يصل مرحلة النضج، سواء أكان ذلك ماديا أم معنويا، طبيعيا أم بشريا... ولعلَّ هذا الذي يفسِّر كون الله تعالى خلق الخلق في زمن محدَّد، وهو القادر سبحانه أن يخلقه في أقلَّ من ذلك، أو حتى خارج دائرة الزمن.

خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، ويخلق الإنسان في تسعة أشهر، وينضج الثمرة في حول... الخ.

وحكمة هذا الخلق من الله سبحانه تكمن في إعداد ذلك المخلوق لظروف ولسنن يسير تحت إطارها، ولا يخرقها، وهذا لا يعني بالطبع أنَّ هذه الأسباب لها إرادة أو قدرة، أو أنها خارج تصرُّف الله وأمره، تعالى الله عن ذلك.

بل إنَّ الأسباب والمسببات كلَّها من خلق الله وحده، لا تندُّ عن إرادته ولا تقهره، ولا تتصرف خلاف حكمه وحكمته.

وقد يبدو الرشد أو النضج في النباتات والحيوانات وجميع المخلوقات غير العاقلة أمرا بدهيًّا، فتتخذ الوسائل، وتعدُّ العقول لتقبُّل تلكم الظروف والشروط؛ ولكنَّنا لو انتقلنا إلى عالم الأشخاص، وعالم الأفكار، وعالم

المعتقدات، وعالم الأنفس، وعالم الجماعات... فإننا نصطدم بصعوبة إدراك مدلول الرشد، ومعنى الرشد، فنخلط بين الأسماء والمسميات، وبين الحقائق والاحتمالات... ونتيه في كهوف من الأوهام وسقم الأفهام، وقد لا ندرك ذلك، أو قد ندركه ولا ندرك المخرج منه.

يعرِّف الشيخ الشعراوي الرشد، بأنه: "**حسنُ التصرف في الأشياء، وسداد المسلك في علَّة ما أنت بصدده**"(خواطر إيمانية، تفسير سورة الكهف)، وبالتأمل في سورة الكهف عموما، وفي قصَّة ذي القرنين بالخصوص، عرَّفنا الرشد بأنه "**ذاتية اتباع الأسباب**". لقوله تعالى: "وآتيناه من كلِّ شيء سببا، فاتبع سببا" وفي روايةٍ "فأتبع سببا".[1]

أمثلة من الواقع

المثال الأوَّل: خرجت من المسجد في فجر يوم من الأيام، بعد صلاة طيِّبة، بآيات من كتاب الله حكيمةٍ، ومباشرةً عند الباب، حيث كان الناس يلتقطون أحذيتم، رأيت رجلا وقورا، تبدو عليه ملامح الهدوء والوقار... غير أنه ما لبث أن غير هذه النظرة في ذهني، حيث ألقى بنخامته أرضا، ولم يحسَّ أي تقزُّز أو ذنب أو مخالفة لمبدأ من مبادئ الشرع.

السؤال هو: كيف نصف هذا الانفصام عند هذا الرجل، بين صلاة الفجر جماعة، والإخلال بخلُق عظيم من أخلاق الإسلام، وبخاصَّة أنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهذا لم تنهه صلاته عن خلق منكر، ومخالفة حضارية؟

هل نقول عن الرجل: "إنه ليس مؤمنا"، أو "ليس مسلما"؟

لكن النصوص لا تُواتِينا، ولا تسمح لنا بذلك؛ فالرجل مبدئيًّا لم

١ للتوسع، انظر المراحل السبعة، في هذا الكتاب.

يقترف جُرما عقديا، أو مخالفة فقهية، فهل نُخرجه من دائرة الحكم، كما هو معتاد في سياق الفكر العام؟

هناك اقتراح ثالث، وهو أن نعبر عن هذا الموقف بنموذج "الرشد"، فهذا الرجل لما يبلغ بعد مستوى الرشد والرشاد، ولم يدرك بعد مرتبة النضج والحكمة، فهو مسلم غير راشد، مؤمن غير ناضج... ولعلَّ هذا الحكم أقرب ما يكون إلى ما يعرف "بخوارم المروءة" عند علماء الحديث، في "علم الجرح والتعديل".

المثال الثاني: في كندا شاهدت موقفا هالني، ذلك أنَّ الناس جبلوا على النظافة، وعلى احترام الأماكن العمومية، فهم من هذه الجهة -أي النظامية الخلقية الجمالية- بلغوا مرتبة الرشد الحقيق، ومن بين الكنديين الآلاف من العرب والمسلمين، جلُّهم من الإطارات الراقية الواعية العالمة، صاحبة المناصب المرموقة في شتى مجالات الحياة...

لكن، في المطار، وأنا متوجِّه إلى بلد عربي، شاهدتُ شبابيك التسجيل للسفر إلى هذا البلد، فإذا أمامها أوراقٌ وأوساخ مرمية تُفسد جمال المطار، وتُذهب رونقه، وتخدش نظافته...

تساءلت: ما الذي دهاهم، وما الذي دفع هؤلاء وهم في هذه البيئة، إلى أن يتصرَّفوا بهذه الطريقة الغريبة الخرقاء؟

أننفي عنهم صفة الإسلام، أو نلغي عنهم حكم الإيمان؟

طبعا، لا، ولكن كيف نفهم المفارقة أنَّ شبابيك بلاد ملحدة، وشبابيك بلاد لائكية... بل كلّ شبابيك العالمين في المطار تتميز بنظافة الأرض حولها، إلا شباك هذا البلد المسلم، ولعلنا لا نستثني بلادا عربية مثيلة؟

obeikandl.com

هل نظلم الدين؟ أو نشك في الإسلام؟ أو نقول: إنَّ الإسلام دين جاء ليضمن الآخرة، ولا شأن له بالدنيا، كما يحلو لبعض الأفكار والاتجاهات والحركات أن تُفهمنا؟

لا هذا، ولا ذلك... بل إنَّ هؤلاء المهاجرين، رغم أنهم غادروا بلادهم، وتأقلموا مع بلاد متحضِّرة، راشدة ماديا، لكنهم للأسف لم يغيروا "نماذجهم الإدراكية"، فالذي يضبطهم هو النظام والقانون والصرامة، فإذا ما أحسُّوا بالأمن من هذه المهدِّدات تحوَّلوا إلى مناظيرهم وطبائعهم التي تطبَّعوا عليها.

إذن، إنهم لم يرشدوا بعد، والبيئة وحدها لا يمكن أن تحوِّل الإنسان من فرد غير راشد إلى شخصية راشدة ناضجة واعية...

المثال الثالث: بعد سنوات من تولِّي الرئيس الفرنسي جاك شيراك خدمة بلده، وبعد تنحِّيه من السلطة، بدأت فضائح تزويره وخداعه للشعب وللقانون وللأخلاق تطفو على السطح، وتنشر في وسائل الإعلام، وتحدث ضجَّة عالمية عجيبة.

فبماذا نفسِّر هذا التصرف من أعلى نقطة في هرم أحد أعرق البلدان حضارة؟

إننا نقول أولا: إنَّ الرجل لم يؤمن بما كان ينضبط به، لكنه مرغما ومقهورا كان يأتي ما يأتي ويذر ما يذر.

ونقول ثانيا: إنه لم يرشد خُلقيا، وعاطفيا، ودينيا... فهو -على مكانته- قد بقي مراهقا إلى آخر يوم في حياته، ولذا لم تنفعه أي روادع، ولا مواثيق، ولا قسَم بالأيْمان... ولا مراقبة إعلامية لصيقة... لم يمنعه كلُّ ذلك؛ لأنَّه كان قادرا على إخفاء ما يريد، وكان فوق القانون، وفوق

العيون... وكان مع ذلك دون مستوى الرشد... وكم من مسؤول سام، يُحسب له ألف حساب، تجده في هذه الحال من عدم الرشد، وما كتاب "فضائح رؤساء العالم"، و"نساء يدرن دواليب الحكم"... إلخ، إلا دليلا آخر على ما ذهبنا إليه.

الشروط الأساسية للرشد

الرشد حسب النص القرآني، بعد تأمُّل السياق، والتفكُّر في المقدمات، والتدبر في الخواتم، له شروط واضحة بينة، إذا توفَّرت اكتمل بدوُّه، وإذا اختلَّت، أو اختلَّ جزء منها، انهار بناء الرشد كلية، ومن هذه القواعد:

أنَّ ثمة رشدا شاملا لكلِّ مناحي الحياة، ورشدا جزئيا لمجال معيَّن دون آخر، فالراشد -مثلا- في إدارة المال، قد لا يكون راشدا في بناء أسرة، أو في الانضباط أمام الشهوات.

• أنَّ الرشد الشامل هو منتهى الديانات، ومبلغ الرسالات، فالإسلام رشد كله، والرشد جميعه من روح الإسلام ومن طينته، وبهذا نفهم قوله تعالى على لسان الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾(الجن:١-٢).

• أنَّ الله تعالى هو الذي يهب الرشد لكلِّ من اتخذ أسبابه، فالذي يتخذ الأسباب ليكون راشدا في التطور المادي -مثلا- يوهب ثمرة رشده، ويبلُغ مبتغاه، ما دام قد اتخذ لذلك أسبابه ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾(الإسراء:٢٠).

• أنَّ الرشد منه فرديٌّ ومنه جماعيٌّ، منه نفسيٌّ ومنه اجتماعيٌّ، منه مدنيٌّ ومنه حضاريٌّ... ولا بدَّ من التمييز بين كلِّ نوع، حتى لا نقع في الخلط والخطأ.

- الرشد لا يكون إلا بالصبر، ولا يأتي إلا بعد الصبر والمصابرة...
- الرشد يأتي باتخاذ الأسباب بعد إدراكها، وبالولوج إلى البواطن، وعدم الاختصار على الظواهر.
- الرشد يهيئه الله لعباده بعد أن يستنفدوا كلَّ الوسائل، ويجتهدوا الاجتهاد كلَّه، ويجاهدوا الجهاد جميعَه... فهو ثمرة لجهد، وليس كلأ مباحا للكسالى والمتلكئين.

دعوة إلى فقه الرشد

دافع المسيري عن فقه التحيُّز، وأحدث به ثورة معرفية نادرة المثال، وكان في معرض الحوار بين الغرب والشرق، بين الإسلام والإمبريالية، بين كلِّ ما هو إنسانيٌّ وكلِّ ما هو ضدَّ الإنسان... أمَا وإننا في سياق مختلف، وفي منظومة تعالج إشكاليات الحضارة من زاوية مغايرة، هي زاوية العلاقة بين الفكر والفعل، وبين العلم والعمل، فإننا نقترح إنشاء فقه جديد هو: "فقه الرشد".

ومن خصائص هذا الفقه أنه يعالج أسباب الحضارة، ويقترح مراحل النمو والنماء والتحوُّل من التخلف إلى التحضر، ومن العجز إلى القدرة، سواء في ذلك المستوى الفردي أم المستوى الجماعي.

ففقه الرشد هو امتداد لنظرية القابلية للاستعمار، التي طوَّرها مالك بن نبي، والتي نرى أنها وصفت المشكلة بما لا يدع مجالا للريب، لكنها توقفت عند هذا الحد، ولم تتمكن من عرض الحلول، لا أقول لفظيا أو نصيا، ولكن أقول: حلولا عملية، مجرَّبة، أعطي لها صفة النضج والرشد، فأنزلت إلى الميدان، ثم لوحظت، ثم قيس الفارق بين "ما ينبغي أن يكون"

وبين "ما هو كائن"، بين "المأمول" و"المعمول"... معتمدين في ذلك على الشكل الحلزوني الذي يصقل الطرح ويختبره.

هذا الذي لم يعرضه مالك بن نبي، وله فضل السبق، ولعلَّ منظومة الرشد تتخطَّى هذه العقبة، وتنزل إلى الواقع، ثم تراقَب منهجيا وفكريا وعمليا... إلى أن يحين أوان رشدها، وتسلَّم بعد ذلك لمن أراد أن يبلغ مبلغها، لا على أنها هي الحلُّ الأمثل النهائي، لكن على أنها طريق واضحُ المعالم، ومنهج بيِّن الخطوات، على السالك أن يسلكه بذاته ولذاته، ولا يمكن لأحد أن يطرقه في مكانه ونيابة عنه...

حول المنظومة المعرفية الرشيدة

ليست "المنظومة المعرفية الرشيدة" مدرسة فكرية، ولا مذهبا دينيا، ولا حركة اجتماعية؛ وإن كانت تتقاطع مع كلِّ أولئك فتوافق وتخالف، وتتبنى وترفض، بناء على رؤية فكرية متناسقة...

فما هي المنظومة المعرفية الرشيدة إذن؟

إنها محاولة فكرية معرفية لفهم الواقع والتفاعل مع أحداث العصر، وهي من جهة أخرى تأصيل لأفعال وأعمال فردية واجتماعية من منطلقات متجاوزة متعالية مطلقة، أساسها كلام الله تعالى وكلُّ ما له ارتباط وثيق به؛ لكنَّ نفس التأصيل في مستوى التطبيق يلبس لبوس التجربة البشرية النسبية المحتملة للخطأ، والمدركة لحدود المعرفة الإنسانية القصيرة والقاصرة.

فالمنظومة في مجملها خطٌّ واصل بين الفكر والفعل، ورحلةٌ شاقة من العلم إلى العمل، تجتهد في الإجابة على سؤال طالما ردَّده المفكِّرون والعلماء والفلاسفة، من مختلف الأجناس والمشارب، ألا وهو:

obeikandl.com

ما العلاقة بين أفكار الإنسان وأفعاله؟

أي: كيف تتحول المعلومات إلى معرفة، والمعرفة إلى سلوك؟

بل إنَّ المنظومة اجتهاد في فهم قوله تعالى بأسلوب السؤال الإنكاري: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾، وسعيٌ لإدراك أغوار الحكم الحازم الجازم الذي أعقب السؤال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾(الصف:٣).

والمنظومة، من جهة ثانية، محاولةٌ لتطبيق دعاء رسول الرحمة محمد ﷺ، وهو يسأل ربه بقلب خاشع خاضع: "اللهمَّ إني أسألك علما نافعا".

فما هو العلم النافع؟

وما هي أساليب تفعيل المعارف؟

وما هي أسباب القصور في تحويل القرآن الكريم إلى حضارة عالمية في عصرنا هذا؟

وأين يكمن الخلل في كل ذلك؟

أحسب أنَّ الإجابة النظرية لا تسمن ولا تغني، ذلك أنَّ الحاجة ماسَّة إلى نماذج فاعلة فعَّالة تجيب على هذا السؤال العميق، والبراديم كولن، الذي نحن بصدده، هو نموذج من بين هذه النماذج، وتجربة ضمن هذه التجارب، لها خصوصياتها ومواصفاتها، ولها مقدِّماتها ونتائجها. فلنحاول تلمُّس هذه الخطوط الذهبية الرقيقة، مستعينين بالله تعالى. وهو ولي التوفيق.

خاطرة رمزية: الحفر بحثا عن المنظومة

في البدء كان الحفر

منذ أمد وأنا أحفر بحثا عن "منظومة معرفية رشيدة"، فكنتُ كمن تاهَ في بيداء قفر قاحلة، لا يملك من أدوات الحفر إلاَّ يديه؛ فعِوض أن يستسلم للأمر الواقع، أو يكتفي برفعهما إلى السماء، راح يقلِّد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، يوم جمعا بين الفعل والدعاء: "وإذ يرفع إبراهيمُ القواعد من البيت وإسماعيلُ"، هذا هو الفعل، والعمران، والبناء..."ربنا تقبل منا"، وهذا التوكل، والمراقبة، والدعاء... أمَّا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(البقرة:١٢٧)، فهو الإيمان بالله، والثقة في حكمته وحكمه...

وهكذا انتظمت الأسبابُ الظاهرة والباطنة، بخيط ذهبيّ رفيق، فآتت أكلها، ولم تظلم منه شيئا، إلى أن بُلِّغت البشرية آمالها في "ربَّنا وابعث فيهم رسولا منهم...".

كان قلبي -وأنا أحفر تحت مخالب الشمس المحرقة- يرنو إلى السماء، لا ليستمطر المُزن فتُلقي عليه الماء، لكن ليلهج إلى ربِّ الأرض والسماء، وربِّ السحب والماء، أن يُعينه على تحمُّل المعاناة واللأواء، بصبر كصبر أيوب... علَّه يحفر "بئرا" دائمة العطاء، تسقيه وتسقي مَن بعده إلى يوم الدين.

openkandil.com

سمفونية الحفر

واليوم، وبعد أزيد من عام كامل طوى في الحفر والتنقيب عن "منظومة معرفية رشيدة"، اهتديتُ إلى ثلة من خيار الأمَّة هنا وهنالك في أطراف الصحراء، كأنهم نزلوا من السماء أو نبتوا من الأرض، حتى اكتملت "سمفونية الحفر"، تُزيل النوم عن الجفون، فتندفع القلوبُ راقصة طربا وشوقا، مُعلنة عهد التمكين لدين الله، ولو كره الكافرون.

• انظر أخي... هنالك... من جهة اليمين... رجلٌ مِن قومي، أعرِفه كما أعرف نفسي أو أشدَّ... إنه "مالك بن نبي"... جبينُه يتفصَّد عرقا، وهو يبحث في "مشكلات الحضارة" ويشخص "أدواءها"...

• قريبا منه "عبد الوهاب المسيري"، وأنفاسه تكاد تختنق لهاثا، فهو يُجهد نفسه في التنقيب عن "نماذج تفسيرية" تمكِّنه من فكِّ شفرة "اليهودية والصهيونية... والحداثة وما بعد الحداثة"...

• ترى، من يكون ذلكم الشيخ الفاره القامة، الأزرق العينين، الذي يقف شامخا شموخ جبال "الألب"... وهو ينظر ويعيد النظر، ويتأمَّل ويكتب، ويُغربل وينقِّب في فهم "ثنائيات الحياة": "المادة والروح، الدين والسياسة، العلم والفن..." فيخلص إلى نتائج لم يسبقه إليها سابق...؟

آهٍ... نعم، عرفته... إنه "علي عزت بيجوفيتش"... العالِم العامل، والرئيس الفيلسوف...

• التفتُّ وجهة اليسار، فإذا بعينيَّ تقعان على رجل آسَوي الطالع، يلبس لباسا مختلفا، ينطق بلغة مختلفة... رأيته وهو يضمُّ الماء إلى

التراب، ويعصر الفكر بالفعل، فتُبعث من بين أنامله أمَّة كاملة من أجداثها... وتخطو خطواتها الأولى فوق صحراء الفكر والحضارة، لتصوغ النموذج لأوَّلِ دولة مسلمة متحضِّرة لم نعرف مثيلا لها منذ أمد... من لا يعرفه؟ إنه "محمد مهاتير"، وإنها ماليزيا... طبعا.

• الحفَّارون بحثا عن الحقيقة كُثرٌ، لا أملك ذكرهم بالاسم، ولا تشخيصهم بالرسم... فمِن الصدر إلى عدون، ومن النامي إلى الغزالي... وبين هؤلاء وأولئك قامات تطول وتقصُر... إنهم جميعا مهُوسون بالحفر، ومنشغلون في إيجاد "الحل" و"المنفذ" و"شعاع الأمل" لأمَّة طال سُباتها، وبدا -يقينا- قربُ استيقاظها لصلاة الفجر: "حي على الصلاة، حي على الفلاح..."

إنه هو ...

في أمسية ربيعية هادئة، كنت جاثما على حفرتي، لعلِّي أزيدُ مترا أو أكثر لعمقها... ألقيتُ بيدي اليمنى دون أن أراها، تماما مثل طفل يحفر خندقا على شاطئ البحر وعيناه إلى السماء... فجأةً، لمستُ يداً، تحسَّستُها، توجَّستُ خيفة... ثمَّ أعدتُ لمسها، فسَرَت قشعريرةٌ في جسدي، وغمرتني طمأنينة وسكينة... قلتُ: "لا بدَّ أنَّ لهذه اليد رأسا، وأنَّ للرأس قلبا... ترى من يكون صاحبُ هذه اليد المباركة؟" لفرط حيرتي تخيَّلته بعيداً عن يديه، لعلِّي أسأل عنه العفاريت، أو لعلَّه سيظهر مع المهدي، آخر الزمان، ولو بعد حين...!

لكن، ما إن خفضتُ عَينَيَّ، ونظرتُ جنبي، حتى شعَّ عليَّ نور جبينه، ورمقتُ عينيه الغائرتين، فإذا بالدموع تهراق فوق وجنتيه، أسفل نظارتين

obeikandl.com

خفيفتين[١]... وسمعت صوتا خافتا يغمره البكاءُ، وعباراتٍ متقطِعة لم أفكَّ شفرتها...

استويتُ على ركبتيَّ، ووضعتُ يديَّ -والتراب يعلوهما- فوق ركبتيه، فناشدته الله أن يقول لي: مَن هو؟، لماذا يبكي؟ أيَّ لسان يتكلم؟ وعمَّاذا يبحث في هذه الصحراء المقفرة، إلاَّ بوجوده ووجود أترابه من الباحثين عن الحقيقة، المنقِّبين عن المخرج؟ سرعان ما حوَّل كلامه إلى اللسان العربي المبين، وإذا به يقول: "مجانينَ أريد، حفنةً من المجانين... يثورون على كل المعايير المألوفة، يتجاوزون كل المقاييس المعروفة..." إلى أن وصل إلى الدعاء: "يا ربِّ، أتضرع إليك... خزائن رحمتك لا نهاية لها، أعطِ كل سائل مطلبه، أما أنا فمطلبي حفنة من المجانين... يا ربِّ يا ربِّ..." فأجهش ببكاء قارَب النحيب، أمدا طويلا، أمَّا أنا فاستمطرتُ عينيَّ بلا جدوى، وعصتني دموعي، ثمَّ جمَّلت بالصبر نفسي، وما أنا بأكثر صبرا منه، لكني -تحقيقا- أقل إدراكا للأعماق، وأضعف وعيا بحال الأمة ومآلها، وأعجز وصفا لخلاصات العشق والأشواق...

التفتَ إليَّ، وكأنَّه لم يرني إلاَّ اللحظة، وقال: "لقد غابت عن واقعنا منذ قرون، منظومة فكرية ذاتية، وفلسفة حياة ذاتية، تعتمد على الحركيات الإسلامية التي تشكِّل جذور المعنى لثقافتنا المِلِّية... فتشتَّتنا شذر مذر، نحن وعالمٌ كبير مرتبط بنا... كم أتمنى أن نتجاوز السلبيات كلَّها، وأن نطوِّر نظاما فكريا وفلسفة ملّية تتغذّى من مصادرنا الذاتية".

قاطعتُه باحترام شديد، وحياء كاد يقتلعني، فقلت له: "عجبا، أنا -ولست

---

١ الأستاذ عادة لا يضع نظارات، إلا إذا كان منهمكا في القراءة أو الكتابة؛ ولذا قليلة هي الصور التي تظهره بنظارات- لاحظ: understanding Fethullah Gulen, p٦٢.

إلاَّ تلميذا بين يديك- أبحث منذ شهور عن "منظومة معرفية رشيدة"، ولقد عرَّفتُ الرشد بأنه "ذاتية اتباع الأسباب"، مستنبطا التعريف من أواخر سورة الكهف، من قوله تعالى في شأن ذي القرنين، صانعِ الحضارة: "إنا مكنا له في الأرض، وآتيناه من كلّ شيء سببا، فاتبع سببا"، واليوم أجدني أمام طود شامخ، قطع العقود والسنين، وهو يحفر بحثا عن هذه "المنظومة الذاتية الرشيدة"، فطوى المسافاتِ، وحقَّق انتصارات تتلو انتصارات... أفلا تأذن لي أن أكون جنديا في كتيبتك، وطالبا في مدرستك؟"

كأنَّ "الأستاذ" لم يسمع قولي، ذلك أنه استرسل قائلا: بنيَّ... "يعيش قسمٌ من البشر من غير ممارسة للفكر، وقسمٌ آخر منهم يفكِّر، ولكن لا يعكس فكره على واقع الحياة. أمَّا ما ينبغي فهو أن يعيش الإنسان وهو يفكِّر، وأن يبتكر أنماطا فكرية جديدة إذ يعيش، فيتفتَّح على آفاق مركَّبات فكرية مختلفة".

أعلنتُ يومها، بصوت عالٍ، يلج إلى أغوار قلبي، ومنها إلى مَن حولي وما حولي: "سبحان الله، ها قد وقعتُ في البئر الذي وددتُ حفره من جديد، لكنَّه بئر قد شقَّ طريقه إلى غد مديد، ووفَّر الماء الزلال للملايين معلنا بزوغ فجر وليد... فما الفائدةُ من إعادة اكتشاف البارود؟ أليس من الحكمة أن أغرف من هذه البئر الطيبة المباركة، لأسهم في سقي العطشى من العالَمين؟"

وما إن انتهيتُ من ندائي، وشرعتُ أتمتم وأحدِّث نفسي حديثا قلقا... و"الأستاذ" أمامي، ركبتاي فوق ركبتيه... حتى شاهدتُ الآلاف بل الملايين من البشر -كأنه يوم إشهاد الذرِّ على نفسها- جاءت من كلّ حدَب وصوب، ووفدت من كلِّ فجٍّ عميق، بعضُهم يحمل دلوا، وبعضهم

يجر خزَّانا، وآخرون يضخُّون بالمحرِّكات العملاقة... وفيهم من لا يملك سوى يديه -مثلي تماما-... ولمَّا سألتُ عنهم، وقلت: "من هم؟"، قيل لي: "إنهم شباب الخدمة"، وهم بإذن الله تعالى "أجيال الأمل" و"وارثو الأرض"...

غرفت بيديَّ سلافة الحضارة والتمكين، وشربتُ حتى ارتويتُ، ثمَّ التحقتُ بالركب، قطرةَ ماء في بحر، وذرَّة تراب في فلاة، وأنا أردِّد بصوت عالٍ، ما علَّمنيه أستاذي الساعةَ:

"اليوم يوم الفعال، إن لم أنهض للعمل، فلن ينهض غيري... اليوم يوم الفعال، اليوم يوم الفعال..."

فشمَّرت عن ساعديَّ، وواصلت عملية الحفر، ولا أزال...[1]

---

١ خاطرة بمناسبة اختبار طلبة من المناهج في أنقره فتح الله عليهم، وفتح بهم، وجعلهم خلائف للفاتح. ٩ مايو ٢٠١٠م. وقد يسر الله تعالى فوزهم جميعا في الاختبار بامتياز، وهم حاليا يدرسون في تركيا المضياف.

obeikandl.com